الخطبة الخامسة والثلاثون

فإني قد رضيتُهُ لك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْد للهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه، أما بعد:

أريد أن أسأل: كيف لي أن أعرف مقياس الربح من الخسارة؟ كيف لي أن أعرف الصفقة الرابحة من الخاسرة؟ كيف لي أن أرى المستقبل لأعرف أن ما أفعله اليوم سوف يفيدني في مستقبلي؟ كثير منا يتوق ويسعى إلى أشياء يحسبها قمة النجاح وقمة السعادة فيما لو تحققت، كثير منا يرى أن حياته معلقة ومرهونة بأمر ما ويسعى ويجتهد ويتوسل ثم إذا تحقق هذا الأمر -بإذن الله- قد يكون صائبًا في قراره ورؤيته -وقد يكون مخطئًا- وقد يكون أن هذا الأمر هو أسوأ أمر، وأسوأ قرار أخذه في حياته، ويلعن ويسب ويشتم وما إلى ذلك، أعود إلى السؤال: كيف لي أن أعرف أن ما أريده هو خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري؟

كان في زمن النبي ﷺ عبد وأمة متزوجان وعندهما ولد، والعبد هذا يحب زوجته الأمة حبًا جمًا، ويركض وراءها ويسعى دائمًا لإسعادها، هذه الأمة اسمها: بريرة، لها طموحات كبيرة، كلمت مالكيها على أن تفك نفسها لأن الشرع الإسلامي يسمح بالمكاتبة، وهو الآن قانون في المدينة، وافق مالكيها على مضض، فباهظوا بثمنها على تسع أواق من فضة، وما إن تم الاتفاق حتى جاءت بريرة إلى أحب الناس على قلب

رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها وطلبت منها المعونة، ورق قلب أم المؤمنين عليها وهي أخبر الناس بالجزاء العظيم في تحرير رقبة فدفعت السيدة عائشة رضي الله عنها إلى موالي بريرة ما اتُّفِقَ عليه وأُعْتِقَتْ بريرة، أصبحت بريرة حرة وزوجها مغيث ما زال عبداً، وفرحت بريرة بحريتها وشعرت بعزتها الاجتماعية كحرة، وهذا زوجها عبد مملوك، وفي الإسلام يحق للحرة ترك زوجها إذا كان عبداً، فهذا حق لها، فقررت بريرة أن تنهي حياتها الزوجية مع زوجها مغيث المتيم بها والمحب لها، والتي هي كل شيء في حياته، ويركض وراءها يبكي ودموعه على لحيته يتوسل إليها ألا تتركه، حتى أن النبي ﷺ قال للعباس رضي الله عنه: «ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثاً؟» رواه البخاري.

ولما رآى مغيث إصرار بريرة على تركه ذهب إلى النبي الكريم ﷺ ليستشفع له عند بريرة، لعل بريرة تنصاع لشفاعة سيد الخلق وحبيب الرحمن، وانظر إلى عطف رسول الله ﷺ وإلى تواضعه وإلى حنانه، فهذا عبد من عبيد الأمة لا شأن له ولا وزن، ولكنه عليه الصلاة والسلام كما قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 9/ 128]، نعم إنه رؤوف رحيم بأمته ﷺ، وهذه شهادة رب العزة خالق الأكوان سبحانه وتعالى.

وكلم رسول الله ﷺ بريرة، وحاول إقناعها بالبقاء على عهدة مغيث، ويرقق قلبها بقوله لو راجعته، فإنه زوجك وأبو ولدك، فقالت بريرة: أتأمرني يا رسول الله؟ إنها ذكية وتعلم لو أن هذا أمر منه لما كان لها الخيار لذلك تسأل: أتأمرني؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إنما أنا أشفع فقالت: لا حاجة لي فيه.

أنا لا أستطيع أن أتصور أن هناك أحداً من المسلمين يرد شفاعة رسول الله ﷺ، ولا أستطيع أن أتصور أن أحداً يرفض طلب رسول الله ﷺ!

كيف لبريرة أن ترفض؟ وما هو الربح الذي سوف تجنيه برفضها هذا؟ وما هذا الذي سوف تحققه؟ ومع هذا لم تختلف معاملته عليه الصلاة والسلام معها ولم يغضب عليها ولم يقل كما نفعل نحن اليوم: ما عملت لي قيمة، ولا قدرتني، وردتني، ورفضت طلبي، كل هذا لم يكن، الشرع سمح لها بالحرية، وهي استخدمت حقها.

أما القصة المقابلة لهذه القصة: فهي قصة حرة جمعت الفضل والشرف من أطرافه، فخالها سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأخوها أول من حمل راية في الإسلام ولقب بأمير المؤمنين، ولقب بالمُجدّع وهو عبد الله بن جحش رضي الله عنه، وأمها عمة النبي عليه الصلاة والسلام: أميمة بنت عبد المطلب وتلقب بأم الحكم، وكان يقال: بأنها سيدة أبناء عبد شمس، وأختها حمنة بنت جحش زوجة مصعب بن عمير، هاجروا إلى المدينة وطلب رسول الله ﷺ من زينب الحرة الشريفة الفاضلة من أرقى بيوت قريش وأعلاها نسبًا، أن تتزوج من مولاه زيد بن حارثة. زيد كان عبداً عند رسول الله ﷺ وكان يدعى زيد بن محمد تبناه رسول الله وهو صغير، إلى أن أبطَلَ الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ [الأحزاب: 33/ 5].

فألغيت عادة التبني وصار يدعى: زيد بن حارثة، ولكن العادات ما زالت عالقة في الذهن فأراد الله أن يبطلها عمليًا، وطُلب من الحرة زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ أن تتزوج هذا الذي كان عبداً، ودارت في ذهن زينب الخواطر المضطربة والعادات الموروثة، كيف لحرة عريفة أن تتزوج بمولى؟! هذا زواج غير متكافئ! وتعجبت من الرسول ﷺ كيف يقبل بهذا الزواج؟! وقالت: «يا رسول الله لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قريش!» نعم هي سيدة من سيدات قريش، فالأيم: هي المرأة أو البنت التي لا زوج لها، أعلنت أنها لا ترضاه لنفسها ولكن رسول الله ﷺ قال لها: «فإني قد رضيته لك».

انظر إلى زينب وإلى النزاع النفسي، الحرّة الأبية العزيزة ذات الحسب والنسب ترضى بمولى لا حسب ولا نسب، ولكن رسول الله ﷺ رضيه لها، وهل هناك خير لها من رسول الله ﷺ فأرسلت إلى رسول الله ﷺ وقالت: زوجني بمن شئت. استسلام كامل نابع عن الإيمان والثقة بالله وبرسوله، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 33/ 36].

فتزوجت زيداً رضي الله عنهما وأرضاهما، استمرت الحياة الزوجية بين زينب وزيد قرابة السنة، ولكن الفارق الاجتماعي والطبقي والعادات والتقاليد لا بد من أن تؤثر في العلاقات الزوجية، فجاء زيد لرسول الله ﷺ يشكوها ويقول: يا نبي الله إني قد اشتد عليّ خُلُقها، وإني مطلق هذه المرأة، فيقول له النبي ﷺ: «اتقِ الله، وأمسك عليك زوجك»، ولكن زيداً لم يعد يطق معاشرتها فطلقها، وأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 33/ 37].

نعم إن الله سبحانه قد أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام بأن زينب ستكون زوجته ولكن رسول الله ﷺ كتم الأمر، فلما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرها عليّ»، فذهب إليها موليًا ظهره لها، وأخبرها أن رسول الله ﷺ يذكرها، فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أُؤامِر ربي، فقامت إلى مصلاها. نعم إنها المؤمنة المستسلمة لقضاء ربها إنها صاحبة الثقة بربها ونبيها، وهذا حال المؤمن دائمًا يستشير ربه ويُحَكِّمُهُ ويستخيره فيما يعرض له من الأمور، ولم يكن الله سبحانه ليتركها، وهنا ينبغي أن أذكر حديثًا مهمًا.

هل تظن أنك تُقْبِل على الله والله يتركك، والله سبحانه يقول: «يقول الله تعالى:

أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعـًا، وإن تقرب إلى ذراعـًا تقربت إليه باعـًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» (حم - ق - ت - هـ - عن أبي هريرة).

وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعـًا، وراجع الحديث، فالحمد لله على كرمه وفضله وعلى جوده، أهذا هو ظنك بالله، ومن المعجزات أنه سبحانه بدأ بالقول بتقرير وتثبيت للقاعدة: «أنا عند ظن عبدي بي»، فالقضية قضيتك، كيف تظن بالله سبحانه وتعالى؟ وليس لي إلا أن أدعو بقوله ﷺ الذي رواه أنس رضي الله عنه: «يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» النسائي، البزار، ك.

فلما قامت إلى مصلاها واستجارت بربها واستخارته ودعته نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: 33/ 37].

وفي رواية أنه لما نزلت الآية خرجت سَلْمى خادم رسول الله ﷺ تشتد (أي: تُسرع) إلى زينب لتخبرها بذلك، فأعطتها زينب رضي الله عنها حُليّـًا كانت عليها، وسجدت لله شكراً وجعلت لله صوم شهرين شكراً لله تعالى، وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما رأيت النبي ﷺ أولم على أحد من نسائه ما أولم عليها (أي: زينب) أولم بشاة وأشبع الناس خبزاً ولحمـًا وذلك شكراً لله حين زوجه إياها بالوحي» البخاري ومسلم.

حرّة من أشرف بيوت قريش رضي لها رسول الله ﷺ مولى من الموالي، فقالت: أترضاه لي؟ فرضيت به، فكافأها الله تعالى بأن زوّجها خير الخلق محمد ﷺ وكافأها الله تعالى بأن الله سبحانه وتعالى الذي زوّجها وليس أبوها أو أخوها، زوجها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات.

وكافأها الله سبحانه بأن جعلها زوجة النبي ﷺ في الجنة، وكافأها الله سبحانه بأن جعل فيها قرآنـًا يتلى من قبل الملايين وألوف الملايين إلى يوم القيامة، لأنها رضيت ما ارتضاه لها رسول الله ﷺ، وأما بريرة أمة تحررت رفضت شفاعة رسول الله ﷺ، ورفضت وساطته فماذا نالها؟ وما الذي حظيت به؟ وماذا كان لها لو قبلت شفاعته ووساطته عليه أفضل الصلاة والسلام؟ الله أعلم، لكن أمامك نموذجين والفرق بينهما واضح وإليك نموذجـًا ثالثـًا:

وهو صحابي من صحابة رسول الله ﷺ اسمه جليبيب وكان فقيراً وكان في وجهه دمامة ولم يكن له عشيرة ولا قبيلة ولا حسب ولا نسب وكان كثير الجلوس في المسجد.

قال له النبي ﷺ: «يا جُليبيب ألا تتزوج؟» فالتفت جُليبيب إلى النبي ﷺ وقال: إذاً تجدُني كاسداً. ثم قال: يا رسول الله من يزوجني؟

ثم لم يزل النبي ﷺ يتحيّن الفرص حتى يزوج جُليبيبـًا، فجاءه في يوم من الأيام رجلٌ من الأنصار قد توفي زوج ابنته، فجاء إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: يا فلان زوجني ابنتك، قال: نعم، ونعمت عين. قال ﷺ: إني لست لنفسي أريدها، قال: فلمن؟ قال لجليبيب، قال: يا رسول الله نستأمر أمها!

شيء شبه مستحيل، ثم مضى إلى أمها وقال لها: إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك، قالت: نعم ونعمت عين، نزوج رسول الله ﷺ، فقال لها: إنه ليس يريدها لنفسه !! قالت: فلمن؟ قال: لجُليبيب!

فقالت: لاها الله إذاً! ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيبـًا، وقد منعناها فلانـًا وفلانـًا؟! قال: والجارية في خدرها تسمع، فلما قام أبوها ليأتي النبي ﷺ، قالت الفتاة من خدرها لأبويها: من خطبني إليكم؟ قالا: رسول الله ﷺ. قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره، ادفعوني إلى رسول الله ﷺ فإنه لن يُضَيِّعني.

فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: شأنك بها، فزوجها جُليبيبًا.

والقصة وردت في روايات عديدة، بعض هذه الروايات أنه لا يجد شيئًا يملكه ليكون مهراً، أو بيتًا، أو أثاثًا أو طعامًا، فجمع له الصحابة بعض المال، وفي يوم عرسه دعا داعي الجهاد، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام حينما علم أنها قبلت دعا لها فقال: «اللهم صُبَّ عليهما الخير صبًّا ولا تجعل عيشهما كَدّاً كَدّاً».

فلما نودي بنادي الجهاد، ودخل المعركة استشهد في يوم عرسه، فقال عليه الصلاة والسلام: «تفقدون من أحد؟» قالوا: نفقد فلانًا ونفقد فلانًا، ثم قال ﷺ: «هل تفقدون من أحد؟ قالوا: لا. قال: لكني أفقد جُليبيبًا. فاطلبوه في القتلى، فوجدوه إلى جنب سبعة من المشركين قد قتلهم ثم قتلوه. فقال النبي ﷺ أقتل سبعة ثم قتلوه؟! هذا مني وأنا منه، يقولها مرتين».

ثم قعد النبي ﷺ بجانب هذا الجسد، ثم حمل هذا الجسد فوضعه ﷺ على ساعديه، وما له سرير إلا ساعدي رسول الله ﷺ حتى وضعه في قبره.

ولما انقضت عدة زوجته تسابق شباب الأنصار للزواج منها لينالوا بركة دعاء النبي عليه الصلاة والسلام لها، وقالوا: إنها كانت أكثر الأنصار مالاً.

أعود الآن إلى سؤالي الذي سألته في أول الخطبة: كيف لي أن أعرف مقياس الربح من الخسارة؟ أو الصفقة الرابحة من الصفقة الخاسرة؟ بعد النظر في هذه القصص الثلاث تبين أن المستسلم لأمر الله سبحانه وتعالى ولأمر رسول الله ﷺ هو صاحب الصفقة الرابحة، وقول السيدة زينب رضي الله عنها أترضاه لي يا رسول الله؟ فلما قبلت كافأها الله تعالى بما ذكرت آنفًا، وزوجة جليبيب عندما قالت لأبويها: «أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعوني إلى رسول الله ﷺ فإنه لن يضيعني» نعم إنه لن يُضَيّعَني.

الثقة المطلقة بالله وبرسوله، الاطمئنان والرضا بما يحكم به الله ورسوله، الخيرة

فيما اختاره الله ورسوله، حسن الظن بالله تعالى، الرضا بما قسمه الله سبحانه وتعالى، الرضا بشرع الله، قبول حكم الله، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: 2/ 138].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم